

سلسلة رؤى في تاريخ السودان (5)

المسيحية
وأثرها الاجتماعي في السودان

إعـداد وتحـرير
د. صديق مهدي عبد الرحمن

الطبعة الأولى 2025م

سلسلة رؤى في تاريخ السودان (5)

المسيحية

وأثرها الاجتماعي في السودان

إعـداد وتحـرير

د. صديق مهدي عبد الرحمن

الطبعة الأولى
2025م

المسيحية

وأثرها الاجتماعي في السودان

إعـداد وتحـرير

د. صديق مهدي عبد الرحمن

الإيداع القانوني

......./2025م



الناشر

دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – الســودان

جوال: 121566207 - 00249122094856

البريد لإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر:

الطبعة الأولى – 2025م



قال تعالى:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

(سورة آل عمران: الآية 59)

إهــداء

إلى الذين يبحثون عن الحقيقة

يناقشون قضايا تاريخ السودان برؤى جديدة

لسد فجوات ما لم يجد حظه في البحث والتنقيب

وتسليط الضوء عليها من جوانب متعددة؛ لتأسيس

مدرسة تاريخية سودانية تضع إطار عام حول مفهوم تاريخ السودان.

إلـى الإخـوة في مجموعـة رؤى جديـدة في تاريـخ السـودان - مركـز بحـوث ودراسـات دول حـوض البحـر الأحمـر - السـودان

شكر وتقدير

خالص الامتنان والتقدير لكل الذين أسهموا وشاركوا في حوارات رؤى جديدة في تاريخ السودان، وفي هذه الكراسة..

والشكر موصول لمركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر، ودار آريثيريا للنشر والتوزيع للاهتمام بالعديد من الموضوعات التاريخية والحضارية التي تُفيد الباحثين على امتداد المعمورة.

جزيل شكري وامتناني للذين أسهموا في هذه الكراسة من خبراء ومختصين في مجموعة رؤى جديدة في تاريخ السودان بمركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان ، وكذلك يمتد شكري وتقديري لدار آريثيريا للنشر والتوزيع - السودان لقيامها بنشر هذا الكراسة.

أ.د حاتم الصديق محمد أحمد	جامعة الزعيم الأزهري، مركز بحوث ودراسات البحر الأحمر
أ.د أبوبكر حسن محمد الباشا	جامعة الزعيم الأزهري
أ.د سامية بشير دفع الله	جامعة الخرطوم
أ.د الريح حمد النيل الليث	جامعة أم القرى
أ.د عبد العزيز محمد موسى	جامعة بحري

أ.د عادل علي وداعة	جامعة سنار
أ.د محمد المهدي إدريس	جامعة دنقلا
د. أحمد اليأس حسن	جامعة الخرطوم
د. عوض أحمد حسن شبا	مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر
د. أنعم محمد عثمان	جامعة الخرطوم
د. حسن عوض الكريم	جامعة شندي
د. نعمات عمر عبد الجبار	جامعة الخرطوم
د. سعاد عبد العزيز أحمد	جامعة أم درمان الأهلية
د. فتح العليم عبد الله محمد حمد	جامعة أم درمان الأهلية
د. أحمد محمد مركز	جامعة البحر الأحمر
د. نبيل رابح سعيد	جامعة كسلا
د. عفاف عبد الحافظ	جامعة الخرطوم
د. خالد محمد فرح	وزارة الخارجية السودانية
د. أبوبكر علي مصطفى	جامعة شندي
د. عزة محمد موسى	جامعة الجزيرة

المحتويات

تقديم

1

يعتبر كتاب المسيحية في السودان وأثرها الاجتماعي إضافة قيمة لتاريخ الفترة المسيحية. جمع فيه الدكتور صديق مهدي عبد الرحمن خلاصة ما تم تداوله من نقاش، ورتب ذلك في محاور ألقت الضوء على الجوانب التي تطرقت إليها مساهمات الزملاء. فشمل الكتاب دخول المسيحية للممالك النوبية والمجتمع النوبي المسيحي والنظام الكنسي واللغة النوبية ونهاية المسيحية في السودان، ثم تناول موضوعاً مهماً وهو عزوف الباحثين عن دراسة هذه الفترة المهمة في تاريخ السودان.

أضاء هذا الكتاب كثيراً من جوانب تاريخ السودان في العصر الوسيط، غير أنه لا يزال هنالك قصوراً واضحاً في دراسة تاريخ الممالك المسيحية كما أشار محرر الكتاب. فهنالك بعض الجوانب التي تتطلب المزيد من العناية والتركيز مثل موضوعات انتشار المسيحية المبكر السابق لاعتناق الممالك لها رسميا في القرن السادس الميلادي، وأثر الرهبان وبطاركة الكنيسة القبطية على ذلك، وانتشار المسيحية في مناطق شرق وغرب السودان وأعالي النيل الأزرق.

وهنالك جوانب أخرى مهمة في هذه الفترة في تاريخ السودان الوسيط بين القرنين (5-15م) شهدت أحداثاً تاريخية كبرى تأسس عليها تاريخ السودان. لعل أهمها ثلاثة أحداث، أولهما نتج عنه قيام الممالك المسيحية، وحدثين نتج عنهما انهيار وسقوط الممالك المسيحية.

الحدث الأول التحركات السكانية الواسعة بسبب التغيرات المناخية في الصحراء الكبرى. فقد استقرت مجموعات كبيرة من السكان في أواخر الألف الأخير قبل الميلاد على طول المنطقة الواقعة شرقي النيل جنوب الشلال الثالث أطلقت عليها المصادر اليونانية اسم القبائل النوبية. ثم اجتاحت هذه القبائل أراضي مملكة مروي منذ بداية الألف الأول الميلاد متوغلة في مناطق النيل الأزرق والبطانة كما ورد في المصادر الرومانية والأُكسومية ونتج عن ذلك انهيار مملكة مروي وقيام الممالك المسيحية.

وجاء الحدث الثاني بعد نحو قرنين ونصف من انهيار مملكة مروي حيث حدث تحرك سكاني آخر من الجنوب الشرقي للسودان أطلقت عليه المصادر العربية اسم (الدمادم) ووصفهم ابن سعيد وأبو الفداء وابن الوردي بتتر السودان. ذكر ابن سعيد في الجزء الرابع من المسكون خلف خط الاستواء في «كتاب الجغرافيا» وكتاب «بسط الأرض في الطول والعرض»:

«المعمور خلف خط الاستواء وفيه عمائر القَمَر التي ينسب إليها الجبل ... والمشهور عنهم في هذا الجزء من مدن السودان دَمّدِمَة التي خرج منه الدمادم على بلاد النوبة والحبشة، سنة سبع عشرة وستمائة [1220 م] في طالع خروج التتر على بلاد العجم. وهم تتر السودان.»

والحدث الثالث تمثل في انتشار الإسلام على طول حدود الممالك المسيحية في الشرق والغرب والشمال مما أدى إلى انتشار الإسلام واللغة العربية وانحسار المسيحية وانهيار مملكتي المقرة وعلوه.

ينبغي دراسة هذه الأحداث وآثارها على كل مناطق السودان. على سبيل المثال: ما هي آثار تلك التحركات على اللغة المروية؟ وما هو دور النوبة والدمادم - تتر السودان - على التركيبة السكانيّة في مملكتي المقرة وعلوه

هل العدد الكبير من الوحدات السياسية المستقلة الذي ورد في سفارة المماليك عام 692هـ/1292 م نتيجة هجوم تتر السودان على مملكة علوه؟

وإلى جانب ذلك توجد الكثير من الموضوعات التي تتطلب البحث والمراجعة في هذه الفترة مثل:

1. انتشار المسيحية قبل فترة التبشير البيزنطية ودور الرهبان والبطاركة الأقباط في ذلك
2. مملكة دوتوا «Dotawo»
3. اتحاد مملكتي نوباتيا والمقرة
4. انتشار الإسلام في السودان قبل قيام الممالك الإسلامية ودور الممالك الحبشية ومملكة كانم على ذلك
5. ممالك شرق وغرب السودان في العصر الوسيط
6. سقوط الممالك المسيحية.
7. نظام الوراثة في الممالك المسيحية

كما اقترح مساهمة أقسام اللغة الإنجليزية في الجامعات بالترجمة كواجبات أو أبحاث تخرُّج لأعمال البعثات الكشفية والموضوعات المنشورة في الدوريات المهتمة بالدراسات النوبية.

د. أحمد الياس حسين
2025/5/17م
جامعة الخرطوم

تقديم

2

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هذه الكراسة الخامسة من سلسلة تاريخ السودان وهي نتاج مناقشات علمية حول بعض القضايا التاريخية السودانية قام بتلخيصها وتحريها دكتور/ صديق مهدي عبد الرحمن أحد أعضاء فريق رؤى جديدة في تاريخ السودان، تناولت هذه الكراسة جانباً مهماً في تاريخ السودان من حيث الموضوع والتواريخ وهو الفترة المسيحية في السودان والتي امتدت لعدد طويل من القرون مثلت فترة العصر الوسيط لتاريخ السودان

حيث تناولت الكراسة أربعة محاور أساسية وهي: الفترة المبكرة لدخول المسيحية بلاد السودان، ولمحات من تاريخ النوبة والبعثات التبشيرية، المسيحية الرسمية والشعبية، وأخيراً أسباب عدم اهتمام الجامعات السودانية والمؤسسات الأكاديمية بدراسة الفترة المسيحية.

من القناعات التي رسخت عند فريق رؤى جديدة من خلال النقاش والحوار الجاد أن الفترة المسيحية تحتاج إلى كثير من الجهود البحثية، وضرورة الاهتمام بها بصورة أكبر، وتحديد الموضوعات التي يجب الكشف عنها، خاصة البدايات الأولى لانتشار المسيحية في السودان وعلاقتها بشرق أفريقيا، والأثر الإقليمي والدولي في نشر المسيحية في السودان، ودور المؤسسات السياسية في ذلك. كما أن فرضية أن المسيحية كانت ديناً

للملوك والطبقة الحاكمة تحتاج لمزيد من النقاش لان هنالك مؤشرات كثيرة منها المكتشفات الأثرية والموروث الثقافي تؤكد تغلغل المسيحية غالب طبقات المجتمع في تلك الفترة. وكذلك النظم السياسية والإدارية في الفترة المسيحية وما زال يشوبها بعض الغموض في ظل التعدد والإشارات عن وجود أسماء ممالك عديدة لم تجد حظها من الدراسات أو بيان العلاقات بينها.

ومن الموضوعات المقترحة أيضاً بداية التحول للدين الإسلامي ونهايات المسيحية في السودان، إضافة لمناقشة أسباب عزوف الباحثين عن دراسة الفترة المسيحية في السودان وطرح حلول مستقبلية لتشجيعهم للاهتمام بهذه الفترة لأهميتها ولأنها تشكل فترة مركزية قي تاريخ السودان.

تُعد هذه الكراسة التي تصدى لتلخيصها باقتدار الباحث الشاب الدكتور صديق مهدي لبنة مهمة للغاية لنبني عليها في دراسة الفترة المسيحية في السودان وطرح العديد من المقترحات والتوصيات حولها لتحفيز الباحثين للالتفات لهذه الفترة.

وختاماً نشكر كل المساهمين في هذا النقاش والحوار العلمي الثر الذي قد يفتح آفاق جديدة للبحث والتنقيب في تاريخ السودان.

د. عوض شبّا

مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر- السودان

14/5/ 2025م

مقدمة

بعد تدهور وزوال مملكة مروي قامت في بلاد النوبة ثلاث ممالك مسيحية كانت نتاج صراع قوي بين شعوب تلك المناطق خلال الفترة ما بين (350-500م) للسيطرة على موروث الدولة المروية وظهر الجنس النوبي بقوة في المشهد السياسي وكذلك البلمي وعلى إثر هذا الصراع ظهرت مملكة نوباتيا في الأجزاء الشمالية من البلاد وكانت مدينة فرس عاصمة لتلك المملكة، وتنصرت هذه المملكة على المذهب اليعقوبي , كما تنصرت مملكة المقرة على المذهب الملكاني وكانت مدينة دنقلا العجوز عاصمة لها، أما مملكة علوه والتي سيطرت على الأجزاء الوسطي والجنوبية اعتنقت المسيحية على المذهب اليعقوبي نسبة لعلاقتها القوية مع ملوك نوباتيا .

ولقد حوت الدراسة على كيفية دخول المسيحية إلى بلاد النوبة، ثم لمحة عن المجتمع النوبي في الفترة المسيحية وطبقاته الثلاث , الحاكمة والموظفين وعامة الناس حيث تميز هذا المجتمع بتنوع القبائل وثقافاته الشعبية والتي تدل على موروث ليس بالنصراني بالضرورة وأوضحت بعض المصادر العربية إلى سجايا ومناقب الشخصية النوبية وعاداتهم وتقاليدهم الأفريقية الصرفة , وأيضا تطرقنا إلى الحياة الدينية والنظام الكنسي ومدى ارتباطه بالكنيسة الإسكندرية والبيزنطية , ولعبت البعثات والجمعيات التبشيرية دوراً هاماً في تنصير النوبيين وكان هذا التبشير نتاج تنافس بين المذهبين الملكاني واليعقوبي لإحراز النجاح في بلاد النوبة .

وكذلك اهتمت الدراسة بالدراسات والاكتشافات الحديثة ومتابعتها أول بأول وتشجيع مواصلة العمل في المناطق الأثرية والعناية بالبعثات الكشفية في المواقع المسيحية؛لأنها تضيف كثيراً من المعلومات في تاريخ الفترة

المسيحية فلابد من الاطلاع عليها ومداولتها بشكل عميق حتى نتجاوز السطحية وتمحور تاريخ الفترة المسيحية في الطبقة الحاكمة (دين ملوك) إلى رحاب الحقيقة وتكامل التأثير الذي أحدثته المسيحية على المجتمع النوبي في تلك الفترة بشكل عام .

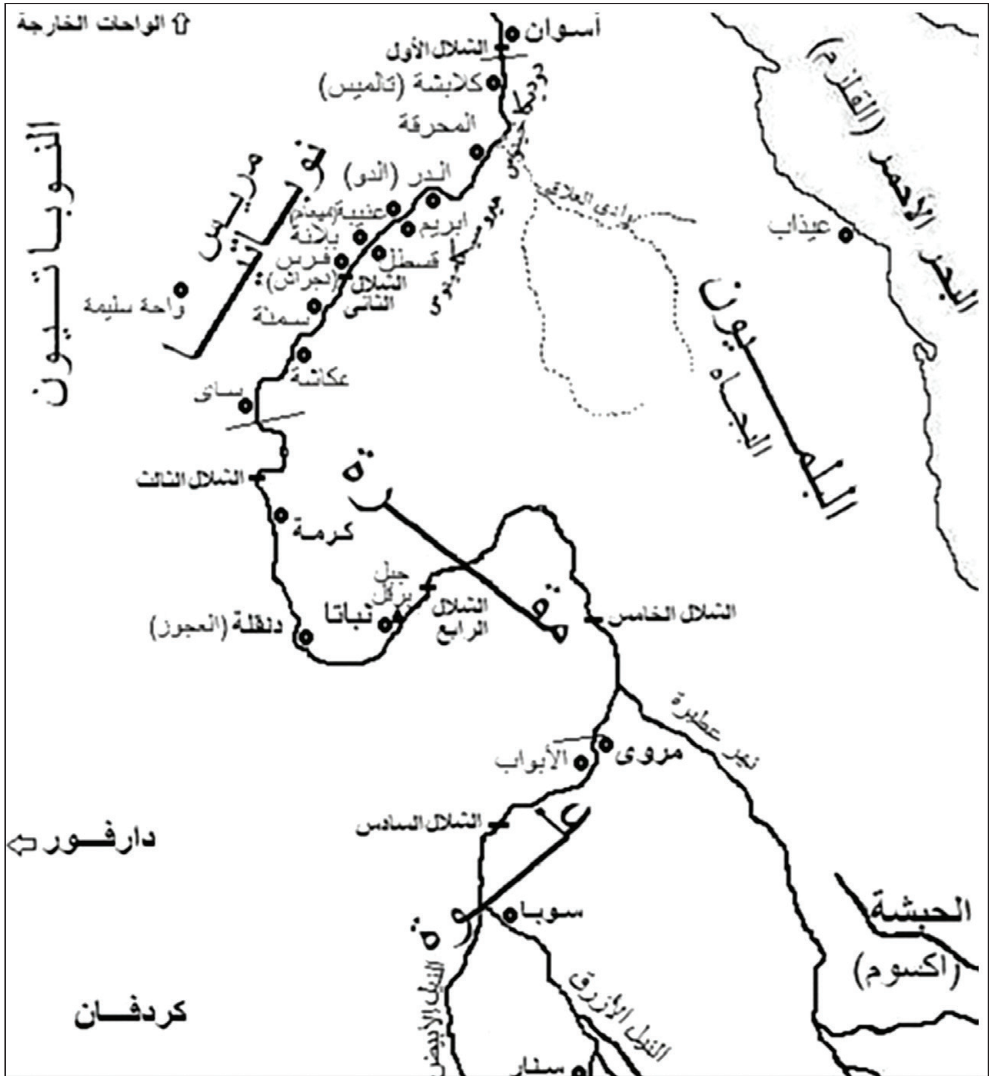
في ختام هذه الدراسة تمت مناقشة عزوف الباحثين والدارسين لتناول تاريخ الفترة المسيحية وأهم العوائق والصعاب، وكيفية تذليلها حتى نجعل شهية الباحثين جاهزة لخوض غمار تلك الفترة بحثاً وتحليلاً لكي نتوصل إلى نتائج وحقائق تميط اللثام عن التاريخ الاجتماعي والثقافي للمسيحية في بلاد النوبة.

والله اسأله التوفيق والسداد ،،

1
المسيحية في بلاد النوبة

في البداية تطرق الباحثون عن الفترة السابقة لدخول المسيحية وكانت خلاصة الآراء أنَّ أهل السودان عبدوا مجموعة من الآلهة أشهرها إيزيس إله الخصوبة حيث بنى له الملوك معابد في جزيرة فيله ' حتى أصبحت الجزيرة منطقة مقدسة يهاجر إليها الناس من ممالك النوبة الثلاث ومواطن البلميين، ومصر في الشمال. ومما لا شك فيه أن اليهودية كانت قريبة من النوبيين حيث سكنت جالية يهودية كبيرة في جزيرة الفنتينة المقابلة لأسوان، ومارست التجارة بين مصر ونوباتيا لكن رغم ذلك لم تنتشر اليهودية في بلاد السودان إلا في إطار ضيق مثل ألخصي الذي ورد في (سفر أعمال الرسل، الإصحاح الثامن من (26 –29) انه كان يقرأ اشعيا مع فيلبس ثم بشره الأخير وعمده مسيحياً.

اتفقت المجموعة على أن المسيحية تسربت إلى بلاد النوبة عن طريق مصر التي عرفت المسيحية منذ القرن الأول الميلادي ولقد كان دخولها مبكراً أي يسبق البعثات التبشيرية الرسمية التي أرسلت في منتصف القرن السادس الميلادي، ومن ذلك ما يروى عن دخولها بلاد النوبة عن طريق المبشرين المصريين في القرن الأول والثاني الميلادي. ولقد كانت بلاد النوبة من البلدان التي فر إليها أقباط مصر من اضطهاد أباطرة روما منذ عصر الإمبراطور دقلديانوس، كما ساهم الاختلاف المذهبي كثيراً في هذا الاضطهاد. لذلك لم يجدوا بداً من الفرار إلى بلاد النوبة، الذين كانوا يغارون علي المناطق الجنوبية بشكل متكرر، فحاول الرهبان كسب ود هؤلاء المغيرين وتنصيرهم.



مماالك النوبة في العصر المسيحي



مشهد الميلاد

تحمل السيدة العذراء ماري الرضيع يسوع

وخلاصة المناقشة في بداية دخول الدين المسيحي لبلاد النوبة كانت عن طريق التقارب الذي قام به ثيودور أسقف فيلة وأسوان والذي وثق علاقته مع زعماء النوبة وقام بزيارات عديدة لبلادهم. تمكن من خلالها التمهيد لدخول النوبيين في الدين المسيحي، وشجع هذا التقارب جستنيان إلى إغلاق معبد فيلة وإرسال تماثيل الآلهة إلى القسطنطينية حوالي 543م وحول المعبد إلى كنيسة مسيحية وأعتبر البعض أن سلكوا أول ملك مسيحي في بلاد النوبة، اعتمادا على ما ورد في نقشه من أن الله قد حقق له النصر. وإشارته إلى أن أعداءه قد اقسموا له بأوثانهم أن يحفظوا بنود السلام.

لكن هنالك كثير من الشواهد الأثرية التي تشير إلى دخول المسيحية إلى بلاد النوبة في وقت مبكر من حكم الملك سلكوا , حيث وجدت كثير من التحف في قبور الكيمان ببلانة وقسطل وزخارف مسيحية شكلت بنفس الأنماط الشائعة في القرنيين الخامس والسادس الميلاديين في بلاد الشرق المسيحي . كما وضع الصليب في كثير منها , كذلك يبدو الأثر المسيحي السابق لمجي البعثات التبشيرية قديما , كشف عنه من مسارج وألوان فخارية مسيحية زخرفت بعلامة الصليب في مستوطنات المجموعة الغامضة (س) على جزيرة مينارتي. وتثبت حفائر قصر أبريم بناء إحدى الكنائس في أواخر عصر المجموعة (س) في جزء من معبد تهارقا. ولكن هنالك من يرى أن البعثات التبشيرية لم تكن سوى محاولة للاطمئنان على ولاء النوبيين لأي من الكنيستين، الأمر الذي يدعمه عدم وجود معارضة قوية لتلك البعثات.

وهنالـك رأي يقـول: أن المسـيحية دخلـت بـلاد النوبـة منـذ حملـة عيزانـا إلـى مـروي أي أن المذاهـب المسـيحية كان لهـا تأثيـر واضـح قبـل دخـول عمليـات التبشـير الرسـمي.

وطرحت بعض الأسئلة عن أن الملك سلكوا كان مرتزقاً من الواحات مدعوماً مـن قبـل الرومـان لحمايـة حدودهـم الجنوبيـة، أم انـه حاكـم وطنـي؟ وهـذا السـؤال لـم نتمكـن مـن وجـود أي أدلـة أو مؤشـرات للإجابـة عليـه.

وخلاصـة الموضـوع أن المسـيحية انتشـرت في بـلاد النوبـة وقامـت علـى أثرهـا ثـلاث ممالـك: نوباتيـا في الشـمال، وهـي تقـع مـا بـين الشـلال الأول بأسـوان وآخـر منطقـة للشـلال الثانـي المعروفـة باسـم بطـن الحجـر وكانـت عاصمتهـا فـرس (نجـراس) وتمتـد في مسـاحات واسـعة يخترقهـا النيـل , نشـأة هـذه المملكـة في منطقـة النوبـة الشـمالية بعـد سلسـة صراعـات بـين البلميـين والنوباتيـين وكانـت الغلبـة في الصـراع لصالـح النوباتيـين ودفعـوا البلميـين إلـى الصحـراء الشـرقية .

وذكـر بعـض الباحثـين أن التنافـس بـين المذهـب المالكانـي واليعقوبـي خاصـة بعـد تعاطـف الإمبراطـورة ثيـودورا مـع الكنيسـة المصريـة (اليعاقبـة) , ولذلـك أرسـلت القـس يوليـان ومعـه أسـقف مدينـة فيلـة , ووجـدت هـذه البعثـة الترحيب واسـتقبالا ملكيـاً , وقبـل النوباتيـين هدايـا الإمبراطـورة وسـرعان مـا أعلـن الملك وأمـراؤه اعتناقهـم للمسـيحية علـى المذهـب اليعقوبـي.

يحيـط سـتار الغمـوض بتطـور الأوضـاع السياسـية في النصـف الشـمالي مـن بـلاد النوبـة العليـا في تلـك الفتـرة، وكذلـك الكيفيـة التـي أدت إلـى مولـد مملكـة مقـرة.

قامت مملكة المقرة إلى الجنوب من مملكة نوباتيا وامتدت رقعتها حتى مروي القديمة أي امتدت حدودها بين الشلالين الثاني والخامس ولقد مثلت مدينة دنقلا العجوز عاصمة لهذه المملكة والتي تقع في الضفة الغربية للنيل إلى الجنوب من مملكة الأبواب في منطقة كبوشية. بالرغم من ندرة المصادر حول تنصير مملكة المقرة إلا أن آثار وشواهد القبور والأدعية التي وجدت كلها تشير إلى ادعيه الكنيسة البيزنطية والتي لا شبيه لها في مصر، مما يعزز الرأي القائل بملكانية مملكة المقرة ودور بعثة الإمبراطور جستنيات قي تنصير أهل المقرة.

امتدت هذه المملكة ما بين الشلال الخامس إلى جنوب ملتقى النيلين في منطقة الجزيرة وبين علوه ودنقلا مسيرة خمسة أيام بالبحر وشمالاً حتى منطقة الأبواب، ويرى كثيرون أن حدودها جنوباً مدينة سنار.

ونرى أن تلك المنطقة تتصف بكثافة مواقعها الأثرية، خاصة بين الشلالين الثالث والرابع، ولقد استطاعت بعثة جامعة وارسو أن تكتشف عن تحصينات ذات أبراج تحميها من ثلاث جهات الشمال والشرق والجنوب، أما الجانب الغربي فيحميه النيل.

ولقد كانت الاكتشافات الحديثة بقيادة قود لنسكي أن دنقلا صارت مستوطنة مهمة بموقع استراتيجي وتحصينات منيعة منذ نهاية القرن الخامس الميلادي.

ويلاحظ الباحث الوجود الكبير للمدافن في المملكة خاصة بين منطقة الزومة وتنقاسي حتى منطقة الشلال الرابع. اقترح قودلنسكي رؤية أخرى لكيفية قيام مدينة دنقلا قوامها حدوث هجرات كثيفة من المنطقة الجنوبية حيث جذبت الأحواض الفسيحة ذات التربة الخصبة سكان المناطق الجنوبية الأمر

الـذي قادهـم لتأسـيس المدينـة التـي صـارت حاضـرة للمملكـة , فالتطـورات السياسـية التـي حدثـت في المناطـق الجنوبيـة أصبـح أحـد الأقاليـم للمملكـة , حيث نشـأة كيانـات سياسـية بعـد نهايـة الدولـة المروية كانـت تستمد قوتهـا مـن الروابـط العرقيـة والثقافيـة لـدى المجموعـات وفـرض العنصـر النوبـي بتلـك الطريقـة سـيطرته علـى وادي النيـل الأوسـط مؤسسـاً للممالـك الثـلاث التـي ظهـرت لأول مـرة في صحائـف التاريـخ عنـد منتصـف القـرن السـادس فيمـا اعتنـق سـكانها وشـعوبهم الديانـة المسـيحية .

ويـرى بعـض المؤرخـين أن قيـام مملكـة علـوه كان نتـاج تدهـور دولـة مـروي، فظهـرت كيانـات سياسـية عديـدة كونـت مشـيخات وممالـك.

مثلـت سـوبا عاصمـة لمملكـة علـوه والتـي تقـع علـى النيـل الأزرق، ولقـد ذكرهـا الملـك المـروي «نسـتاسـن» وكذلـك الملـك «الأكسـومي عيزانـا «, ويـرى اليعقوبي أن علـوه اسـم لفـرع مـن فـروع النوبـة وكانـت عامـرة بالسـكان والقـرى وتتوفـر بهـا كثيـر مـن الميـاه لاتصـال هـذه المناطـق بالنيـل , ولقـد وصفـت بالمملكـة العظيمـة , وكان بهـا جيـش قـوي , قسـمت هـذه المملكـة إداريـاً إلـى أقاليـم وكل إقليـم لـه ملـك أشـهر أقاليمهـا الأبـواب أو الرحـراح .

اتسـمت العلاقـة بـين نوباتيـا والمقـرة بالعدائيـة وهـذا العـداء وقـف عائقـاً في طريـق المبشـرين المسـيحيين الذيـن كانـوا ينـوون الذهـاب إلـى علـوه، ونلاحـظ هـذا بعـد إرسـال ملـك علـوه «أرفيـولا» رسـالة إلـى ملـك نوباتيـا يعلـن فيهـا رغبتـه في اعتنـاق المسـيحية ودعـوة الأسـقف لونجنيـوس لتعميـده هـو ورعايـاه، رغـم مغادرتـه بـلاد النوبـة ذاهبـاً للإسـكندرية إلا انـه لـب رغبـة ملـك علـوه وتحـدى الصعـاب التـي وضعهـا لـه المالكانـين في مملكـة المقـرة . إضافـة إلـى رفـض ملـك علـوه التنصيـر علـى المذهـب المالكانـي , حتـى وصـل القسـيس

لونجنيوس إلى سوبا وعمد الملك والأمراء ووجد بعض الاكسوميين الذين عرفوا بالخياليين , نتيجة لبعدهم عن التعاليم ألحقه , فأعاد لونجنيوس تنصيرهم. لذلك يمكن القول بأن المسيحيين الاكسوميين أسهموا في تهيئة القائمين على أمر علوه لطلب لونجنيوس حتى تجري علي يديه عملية تنصير العرش والصفوة والشعب في تلك المملكة.

2

البعثات التنصيرية المسيحية

هنالك مجموعة من الأسباب أدت إلي إرسال بعثات تبشيرية إلى بلاد النوبة , رغم أن الوصف الذي دُوِّن عن هذه البعثات يصور الأمر باعتباره سباقاً بين الملكانيين واليعاقبة لإحراز النجاح في هذه البلاد , لكن كان لجستنيان دوافع سياسية ودينية جعلته حريصاً على نشر المسيحية في هذه الناحية من الإمبراطورية , ولم يبق له إلا أن يجذب البلميين والنوبة إلى المسيحية فيسيطر على وادي النيل الأوسط وتأمين حدود إمبراطورته، كما وعدته بيزنطة بإرسال جنود بلميين ونوبيين إلى أكسوم لدعم غزو بلاد اليمن ضد الحميريين وحليفهم الفرس فيسيطر على البحر الأحمر والطريق التجاري على الهند.

التأثير في نشر الدين المسيحي بين المصريين والأكسومين على بلاد النوبة كان محل سؤال خاصة بعد وجود الأكسومين في مملكة علوه قبل وصول البعثات التبشيرية لها. المعروف أن الكنيسة الأثيوبية الأرثوذكسية كانت تستمد السند الروحي والتبشيري من الكنيسة القبطية المرقصية في مصر وأن بطريك الحبشة أو أبونا الكبير كان دوماً قساً منتدباً من الكنيسة المصرية، حتى إلى عهد قريب كما قيل. فهذا المعطى يحمل على الافتراض الأرجح بأن يكون قدامى السودانيين الذين اعتنقوا الديانة المسيحية قد تأثروا بمصر في المقام الأول ثم بيزنطة لاحقاً على أيام جستنيان وثيودورا.



افريز الحمائم بكاتدرائية فرص

3

الاكتشافات الأثرية

اتفقت مجموعة الباحثين على أن الاكتشافات الأثرية كانت تمثلها البعثة البولندية منذ ستينيات القرن الماضي وكذلك البعثة البريطانية في منطقة سوبا القديمة، لكن المجال مفتوح للدراسات الحديثة خاصة الوطنية.

من الزخارف المسيحية التي زينت بها التحف تفريعات العنب المضفورة، وأشكال آدمية تشبه في زيها وأوضاعها ما يوجد على التحف الفضية المنسوبة إلى سوريا وأنطاكية، كما تذكرنا بـ التصاوير الجدارية في باويط وسقارة. ومن المعروف أيضاً أن مدرسة الإسكندرية الهلينستية قد تأثرت بالفن السوري في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي , ويظهر هذا التأثير في المنحوتات والتصاوير الجدارية القبطية , وتشبه بعض المباخر والمسارج وبعض الصناديق الخشبية المطعمة بالعاج التي عثر عليها في مقابر الكيمان والتحف المعاصرة لها في موضوعاتها الزخرفية وأشكالها العامة وهذا ما تظهره الأواني الفخارية التي عثر عليها , كما يبدو الأثر المسيحي السابق لمجيء البعثات التبشيرية فيما كشف عنه من مسارج وألوان فخارية مسيحية زخرفت بعلامة الصليب في مستوطنات المجموعة الغامضة (س) على جزيرة مينارتي .

وتشير الاكتشافات الحديثة لليونسكو إلى أن الكثير من المقابر المتأخرة في عهد المجموعة (س) قد اختلطت بمقابر المسيحيين بدرجة لم يكن من اليسير معها التمييز بينهما في حالات كثيرة سواءً في شكل البناء أو وضع

الأجساد أو حتى مستلزمات الدفن، لذا يمكن ملاحظة عدم التغير في العادات الجنائزية بشكل كبير في بلاد النوبة بعد دخول الدين المسيحي.

ولقد أثبتت حفائر قصر أبريم بناء إحدى الكنائس في أواخر عصر المجموعة (س) في جزء من معبد بناه ترهاقا , وهي تعتبر من أقدم الكنائس في بلاد النوبة . وكشفت الحفائر في قصر أبريم أربعة لفافات من البردي تمثل أربعة خطابات ربطت معاً في حزمة واحدة، وأول هذه الخطابات وأكبرها خطاب ملك البلميين إلى ملك النوباتيين .

أما الخطابات الأخرى كتبت بالغة القبطية وكانت موجهة من أفراد مختلفين إلى شخص واحد (سيد أولئك الذين ينتمون إلى النوبة) وفي فرس وجدت البعثة البولندية على بقايا كنيسة بنيت بالطوب اللبن تحت أنفاق ما سمي بقصر الحكام النوباتيين والذي تؤرخه البعثة بحوالي منتصف القرن الخامس الميلادي.



مشهد عذاب الجحيم القرن التاسع

ويرجح ضعف الجماعات المسيحية في نوباتيا إلى نشاط الجماعات الوثنية من النوباتيين والبلميين في القرن الخامس الميلادي , لذا يمكن أن نخلص إلى أن البعثات التبشيرية وانتشار المسيحية في بلاد النوبة كان عبارة عن اطمئنان إلى ولاء النوبيين الى أي من المذاهب (الملكاني أم اليعقوبي) لذلك لم نلحظ معارضة قوية لهذه البعثات , ويمكن ملاحظة ذلك في خطاب سفير الإمبراطور الروماني إلى ملك النوبة من أن ملك الرومان يبلغه بأنه (في حالة اعتناقكم للمسيحية يمكنكم الارتباط بالكنيسة ومن يحكمها , ولا تكونوا منقادين ضالين وراء أولئك الذين طردوا منها).

كما ذكر الباحثون أن المسيحية انتشرت على نطاق واسع بين عامة الناس وهذا تثبته الاكتشافات الأثرية الحديثة في منطقة الشلال الرابع الوعرة في صحراء بيوضة. لكن رغم هذا الانتشار إلا أنها لم تكن ذات عمق في نفوس الناس فهل كان أهل النوبة على دين ملوكهم فقط؟ لكن هذا الرأي تم نفيه بواسطة الاكتشافات الحديثة سابقة الذكر.

كان ختام النقاش حول الآثار باكتشافات إسلامية حفيظات فضية يرجع تاريخها للقرن العاشر الميلادي عليها نقوش إسلامية بالغة العربية , آيات وأدعية بل وجدوا القالب الذي كانت تصنع منه تلك الحفيظات مما يدل على أنها كانت تصنع محلياً لمجتمع ليس بالصغير. الشيء الذي يجعل البحث الأثري عن الفترة المسيحية مفيد للمسيحية وغيرها من الفترات التاريخية.



صليب من فرص



كنيسة دنقلا

4

المجتمع النوبي
في الفترة المسيحية

تألف مجتمع النوبة المسيحي من ثلاث طبقات :

1. طبقة الحكام
2. طبقة الموظفين
3. طبقة عامة الشعب

الطبقة الحاكمة:

شملت الأسرة المالكة وعلى رأسها الملك وولي العهد وحكام الأقاليم، وتتمتع هذه الطبقة بالحقوق الدينية والسياسية والتي جعلت منها طبقة مميزة، ولقد برزت مكانة الملكة الأم وذلك ما تم الكشف عنه من تصوير على جدران كاتدرائية فرس. وكان نظام الوراثة السائد هو نظام الأمومة فيرث ابن البنت أو ابن الأخت، وكان لملك النوبة السلطة المطلقة للبلاد من خلال ثلاثة عشر ملكاً، كما لقب الملك أيضاً بعظيم النوبة إلى جانب الملك كان هنالك حكام الأقاليم وهم نواب الملك ومناديبهم في الحكم في أقاليم النوبة الثلاثة عشر. ولقد مارس هؤلاء وظائف كهنوتية إلى جانب مهامهم الإدارية.

أما طبقة الموظفين فهم الذين يقومون بأعمال نائب الملك، كما وجدت وظائف أخرى حملت ألقاباً بيزنطية، مما يوضح تأثير النظام الإداري

بالبلاط البيزنطي، ومنها أمين خاص الملك، حامل الرسائل أو البريدي، حامل التاج، وكبير الحراس، وأمين الأختام.

أما طبقة عامة الشعب فلقد كانت خاضعة للملك ووسيلة من وسائل التبادل التجاري لانتشار تجارة الرقيق ولا يعصون الملك أبداً.

خلص النقاش في المجتمع النوبي وتأثيره بالمسيحية إلى أن اللغة واختلافاتها كان لها أثر كبير في عدم تعمق الفكر المسيحي عند النوبة، حتى أن رجال الدين لم يتمكنوا من أداء أدوارهم بالشكل المطلوب. كما أن الفلسفة العميقة لفهم طبيعة الاختلاف المذهبي للمسيحية كان معقداً على عامة الناس فلم يجتهدوا لفهمها والتشرب بها. الشيء الذي ساعد الإسلام كثيراً في إزالتها.

كما أسهم بعد النوبيين وانقطاعهم عن مراكز العقيدة الدينية المسيحية في الإسكندرية والقسطنطينية (انظر الأب فانتيني وآدمز وغيرهم)

الأحوال الاجتماعية في النوبة المسيحية:

يمكن وضع الطابع العام في الممالك المسيحية بالطابع الريفي، حيث كانت السمة العامة لغالبية سكان المنطقة. والتي كانت تتصف بكثرة القرى على النيل وروافده إلى جانب احتوائها على مدن عديدة تنتشر على ضفتي نهر النيل والنيل الأزرق، وشكلت هذه التجمعات الأُطر الجغرافية التي ضمت أعلى فئات المجتمع المؤثرة في مجالات الحياة المختلفة بالبلاد. وضم المجتمع النوبي قطاعات البدو رعاة الأغنام.

لعبت المدن النوبية دوراً مهماً في النواحي السياسية والاقتصادية والإدارية والدينية خلال عصر التنصير وتفاوتت أدوارها وأهميتها حسب الموقع

الجغرافي إضافة إلى ما حظيت به من مصادر ثراء مادي وبشري، وبرزت مدن عديدة في المصادر منها قصر أبريم، وجبل عدة، وفرص، دنقلا، إيلاف، سوبا ونوباتيا.

طرقت المصادر العربية لأهمية دور المرأة في المجتمع النوبي المسيحي وركزت هذه المصادر على أهمية دور أم الملك وأخته وزوجته التي هي الملكة الأم المستقبلية في بعض الحالات، وصلاتهم بأمر من يؤو إليه العرش بعد وفاة الملك، ودورهن في النصح والمشاورة للملك في بعض المسائل. نساء النوبة لم يلعبن دوراً مميزاً في الحياة السياسية، ضاهى دور كنداكات مروي أي ملكاتها الحاكمات رغم أن مجتمع النوبة المسيحي كما المجتمع المروي كان ينتهج طريقة النسب إلى الأم وربما سمح للمرأة أن تتبوأ بعض مناصب ذات الطابع الإقليمي، فقد حملت بها نساء النوبة المسيحيات ألقابا كـ الأستا (الابنة) , وتمتع مع ذلك بنفوذ اقتصادي ومعنوي معتبر أكثر منه سياسي وتنفيذي .

حيث أوضحت الوثائق التي وجدت في قصر أبريم إلى أن نساء نوبيان أمتلكن الأراضي وتداولنا فيها بالبيع والشراء، ومورست التجارة على المستويين الداخلي والخارجي خاصة مع البلدان المسلمة والحبشة. كما أشارت بعض المصادر العربية عن أن طبيعة المجتمع النوبي كانت قبلية إضافة إلى طبقيته التي تظهر فيه على قمتها الأسرة المالكة والحاشية وكبار الإداريين ورجال الدين وزعماء القبائل الكبيرة وقادة الجيش. وهنالك طبقة وسطى ضمت التجار وبعض المزارعين ومربي الماشية وغيرهم. وطبقة فقيرة من النوبة، ثم طبقة الرقيق.

تميز مجتمع النوبة بتعدد قبائل وثقافات شعبية التي تدل على موروث ليست نصراني بالضرورة، وأشارت بعض المصادر العربية إلى سجايا ومناقب الشخصية النوبية لدى الذكور والإناث وعاداته وتقاليدهم الأفريقية الصرفة.

العمران النوبي في الفترة المسيحية:

لابد من مناقشة الحالة التي كان عليها سكان الممالك المسيحية من الناحية العمرانية والتي أخذت الطابع الحضري والريفي. لم تشر المصادر العربية إلى هيئة القرية النوبية، حيث كانت تحتشد هذه القرى بالمنازل التي زودت بأبراج الحمام وفي كل قرية وجدت كنيسة، وكانت تفتقر إلى المباني العامة وساحات الأسواق، حيث كانت قرى للفلاحين، جمعت بينهم صلات بـ القربى حيث لم تلتزم فيها بمخطط عام وهذا يظهر من خلال قرب منازلهم الشديد من بعضها البعض.

احتوت كل قرية على كنيسة واحدة على الأقل شيدت على إحدى أطرافها، واحتوت قرية مينارتي إضافة إلى الكنيسة مستوطنة صغيرة للرهبان واشتملت العديد من القرى على مبنى أو مبنيين استخدماً للشأن العام. واكتشفت في أرمنا مجموعة من الحجرات تفتح على فناء، لعلها كانت لحوانيت، وربما كان هنالك جانب لبيع الخمور ترجع للفترة المسيحية المتأخرة وفيها أيضاً مرحاض عام في مركز القرية.

تنتمي جميع تلك الكنائس إلى النمط البازليكي البسيط المعهود في أرياف المقرة وشيد جميعاً من مواد محلية كالحجارة واللِّبن والجالوص والطوب الأحمر ويغلب فيها استخدام الحجارة الغير مشذبة والطوب اللبن والجدير بالذكر أن آثار الدمار والخراب الكبير التي كانت عليها تلك المواقع لم تتح الفرصة للتعرف على ما أن كانت جدران تلك الكنائس قد زينت بـ تصاوير أم لا.

أما في الحواضر فنجد مجموعة من الكنائس. كما ذكر بعض الباحثين وجود بعض الكاتدرائيات حيث تهيأت الظروف لكرسي الأسقفية.

العمارة الدينية:

تستهدف العمارة الدينية في النوبة المسيحية تنوعاً في منشأتها التي تراوحت بين الكنائس والأديرة ودور كنائس الاستشفاء التي كانت توفر العلاج من خلال ممارسة مرجعيات الديانة المسيحية وخبرات العلاج المكتسبة من التراث المحلي والإقليمي وكان للتطوير الذي وسم العمارة الدينية في تلك الفترة نتاج التداخل في أساليب فنون العمارة في العالم المسيحي المتوسطي والتراث المعماري المحلي ,. ولقد أثرت البيئة الطبيعية في تحديد مادة البناء وأنماط من الزخارف المعمارية في تلك الصروح , فيستخدم فيها الطوب اللبن والأحمر إلى جانب الحجر الرملي والجرانيتي مجتمعة أو على حدة وفقاً للظروف المؤثرة في كل مرحلة .

ويظهر المنحى العام لتطوير العمارة الدينية النوبية في العصر المسيحي من خلال الصروح والمؤسسات الدينية التي شيدت في المراكز الحضرية وبعض المواقع البعيدة من المستوطنات الدينية مثل دير الغزالي . وأشهر تلك الصروح ما شيد في المراكز الحضرية وبعض المراكز الإدارية الحضرية الكبرى مثل فرص، دنقلا، وسوبا، والتي حوت كنائس وكاتدرائيات كبرى وأديرة، أما العمارة الدينية في الريف فكانت الوحدة الرئيسية فيها الكنيسة حيث تتصف بصغر الحجم والمساحة حيث تتناسب وعدد المصلين الصغير في القرية.

اعتمد المعماري في تخطيط الكنيسة النوبية على الصليب المستطيل وفق رؤية محلية جديدة في العمارة الدينية، وخلقت تجانس بين ملامح البازليكا

التقليدية وتخطيط الكنائس القائمة على الصليب المربع، وهذا الدمج بقدر ما هو بعيد عن تأثير العمارة القبطية إلا انه مؤشر إلى أن الكنيسة في وقتها المبكرة كانت مالكانية من حيث الطراز المعماري وليس مرقصية كما تشير من ناحية أخرى الى زيادة حجم الهيكل وحجبه عن المصليين بحواجز من الطوب يوحي بطابع كنائس الأقباط في القرن الثامن الميلادي.

اقتصر النحت في الكنائس التي أنشأت فيلا بلاد النوبة في الفترة المبكرة , واستخدم كوسيلة جمالية أكثر من كونه وسيلة تعليمية , وتعريفية وخضع بشكل كبير الى الفنان القبطي والبيزنطي مع وجود لمسات أضافها النحات المحلي على منحوتاته . والجدير بالذكر أن النحت القبطي اتّصف بتنوع المواضيع وثراء زخرفتها وتجسيد ذلك في الأشكال النباتية كالفروع والأوراق والزهور والثمار , وما يُلائم الذوق النوبي والبيئة المحلية , لكن ضروب الفن في النوبة أوجد علاقات قوية بين نصارى النوبة وعالم شرق المتوسط الذي مثل مصدر إلهام للفنون النوبية الدينية في ذلك الوقت .

أضاف بعض المختصين أن أهل النوبة لم يكونوا متمسكين بالدين الجديد حيث لم يلحظ ممارسة أي من الاحتفالات والمناسبات الدينية كذلك لم يعتل أي منهم منصبا بارزا في النظام الكنسي . أي أن التدين الجديد لم يكن بالشكل الكافي للممارسة تلك الشعائر .

وقد كان رأي بعض المؤرخين غير ذلك أما ما يقال عن انتشار المسيحية بين طبقة الحكام دون الرعيّة فذاك خطأ تدحضه قبور النوبة المتنصرين في الأرياف والبوادي . راجع الكشوف الأثرية الحديثة في منطقة الشلال الرابع الوعرة وصحراء بيوضة .

لـذا يمكـن أن نخلـص إلـى أن الديـن الرسـمي والشـعبي في ممالـك النوبـة المسيحية على درجة واحدة كما أوضحت الاكتشافات الحديثة اهتمام عامة النـاس بالديـن الجديـد وممارسـة شـعائره.

إضافـة إلـى أن ضعـف النظـرة الكليـة لتاريـخ السـودان والطريقـة الانتقائيـة لحقـب تاريخـه المختلفـة ربّمـا كانـت السـبب الرئيسـي لقصـور المؤسسـات الأكاديميـة السـودانية بالتعريـف بتاريـخ السـودان على الوجه الكامل وموضـوع الهويـة بكامـل تشـعباتها وإبـراز الـدور العظيـم للمجوعـة النوبيـة اجتماعيـا وثقافيـاً .

لـذا نلحظ قلة المعلومـات لدراسـة تلـك الفتـرة في المؤسسـات الأكاديميـة والتـي تعتمـد مصـادر يرجـع تاريخهـا إلـى سـتينيات القـرن الماضـي وعـدم مواكبـة البعثـات الكشـفية وتقاريرهـا التـي تسـهم كثيـراً في إثـراء البحـث العلمـي لتلـك الفتـرات .

ولابد لهذه المؤسسـات أن تصبـح قاطـرة للمعرفـة بهذه الدراسـات التـي امتدت إلـى إقليـم كردفـان ودارفـور وشـرق السـودان والنيـل الأزرق وغيرهـا مـن مناطـق السـودان المختلفـة , يمكـن بعـد ذلـك معرفتـه دراسـة الحقـب المختلفـة لتاريـخ السـودان بشـكل علمـي وممنهـج .



الملكة مارتا في حماية العزراء والطفل المسيح

5

الحياة الدينية
والنظام الكنيسي في بلاد النوبة

نلاحظ أن هناك مؤتمرات راتبه عن الدراسات النوبية وكذلك الدراسات المروية تنشر فيها أحدث التقارير والكشوف الأثرية والدراسات ذات الصلة، لكن السؤال أين دور المؤسسات والباحثين من تلك المخرجات وهل يمتلكون عضويات في جمعية الدراسات النوبية والمروية؟

دراسة هذه التقارير والإلمام بالمعلومات والمعرفة لتلك الكشوف كان وما زال يمثل معضلة للباحثين، فتاريخ النوبة المسيحية يعتمد كثيراً على الآثار واللغات القديمة كالإغريقية والنوبية والقبطية، وهذه اللغات لا مكان لها في مؤسساتنا العلمية، يضاف إلى ذلك أن الغالب والأعم من التقارير الأثرية والدراسات الحديثة لتلك الفترة كتبت باللغة الانجليزية أو الفرنسية أو البولندية أو الألمانية فلابد للباحث من الإلمام بها أو واحدة على أقل تقدير حتى يتمكن من مواكبة المعلومات والآثار المادية والثقافية لتلك الفترة .



أعمدة كاتدرائية فرص

على الرغم من اعتناق النوبيين للمسيحية لم يكن نابعا من فهم عميق لها، كما انه لم يكن هنالك علماء مختصين في الدين، لكن الكنيسة النوبية تمتعت بسلطة كبيرة في البلاد، نبعت من ارتباطها بسلطات الدولة. وقد سبقت الإشارة إلى قيام حكام الأقاليم بوظائف كهنوتية إلى جانب أعمالهم الإدارية، كما أشارت بعض النقوش إلى أن الأساقفة ورجال الدين من القساوسة والشمامسة والمرتلين عملوا بمهام إدارية مدنية. ويتجلى النظام الكنسي في بلاد النوبة في وجود خمسة عشر أسقفية، سبعة منها في مملكة المقرة، وهي كلابشة , وقورته , وابريم , وفرس , وصاي , ودنقلا, وشنقير قرب أبو حمد .واثنتان لم يتم التحقق من موقعهما مركة , وكلمة . أما أسقفيات علوه فهي بورة , وقاقارة , ومرتين , أروديا س , وبنازي , ومكنسة , وكلاهما علي ضفاف النيل .



جانب من كاتدرائية قصر أبريم

لقد عبرت الرسوم الجدارية في الكنائس والقصور والمنازل عن انتشار الثقافة الدينية وزخرفتها بين مكونات الطبقتين العليا والوسطى إلى جانب كشفها عن مهارة الرسام النوبي ومصادر إلهامه , ولقد تنوعت المؤسسات الكنسية في هذا العصر ولم تقتصر على الكنائس البازليكية الصغيرة , بل شملت الكاتدرائيات والأديرة والمشافي , وأسهمت هذه المؤسسات بدور عظيم في النهضة التي شهدتها البلاد .

لذلك يمكن القول أن الديانة المسيحية في ذلك الوقت كانت تشكل معتقدات معظم النوبة القاطنين على ضفتي وادي النيل وصحراء بيوضة , والمؤكد أن معرفته الكتابة الإغريقية أو القبطية أو النوبية القديمة كانت منتشرة في مجتمعات تلك الحقبة خاصة في المجال الكنسي , سواء بالحواضر أو

القرى وبشكل خاص على الرجال في الأديرة والكنائس , وخير دليل علي ذلك دير الغزالي , إضافة إلى الانتشار الكثيف للقبور المسيحية في مناطق وادي النيل الأوسط , وكان شكل القبر يمتد من الشرق إلى الغرب ويسجى جسمان المتوفى فيها على ظهره حيث يحتل الرأس الاتجاه الغربي من اللحد , ويكون البناء الفوقي على هيئة صندوق , وكانوا لا يدفنون أثاث جنائزي مع المتوفى , فيما حالات قليلة لرجال الدين ذوي المقامات الرفيعة.



القديسة حنا من كاتدرائية فرص

الشـيء الـذي يؤكـد أن المسـيحية لـم تكـن عقيـدة الملـوك وحدهـم , اكتشـاف الكنائـس بمواقـع القـرى الأثريـة كبيـرة كانـت أم صغيـرة وكانـت القبـور أو الجبانـات تـزود بكنيسـة صغيـرة تقـام فيهـا طقـوس مـا قبـل دفـن الجثمـان ,لذلـك يمكـن القـول أن (المسـيحية ديـن ملـوك النوبـة) دحـض بالأدلـة المادية الأثريـة. , لكـن علينـا أن نشـير إلـى أن الإلمـام العميـق بمختلـف مكونـات العقيـدة المونوفيزيتيـة لـم يكـن يأتـي لمعظـم النوبـة في ذلـك الزمـان , لارتبـاط المسـيحية بأفـكار فلسـفية وارتباطهـا أيضـاً باللغـة اليونانيـة التـي كانـت معروفـة فقـط لرجـال الديـن . وكانـت الخطـب تترجـم إلـى أهـل البـلاد بلغتهـم كمـا أشـار لذلـك الأسـواني وغيـره مـن المسـلمين الذيـن كتبـوا عـن النوبـة في العصـور الوسـطى.

ثـم دار النقـاش عـن اللغـات التـي كانـت حاضـرة في تلـك الحقبـة التاريخيـة , ولاحـظ الباحثـون أن اللغـة اليونانيـة انتشـرت بيـن رجـال الديـن في الكنيسـة , والذيـن عرفـوا اللغـة القبطيـة والتـي تحـدث بهـا اللاجئـون إلـى بـلاد النوبـة مـن الأقبـاط وتعلمهـا النوبيـون في الأديـرة والكنائـس , وكانـت النصـوص التأسيسـية والأدعيـة علـى شـواهد القبـور بهاتيـن اللغتيـن .

6

اللغة النوبية

أما اللغة النوبية فقد انتشرت بين عامة الناس , وبعد اتخاذها الشكل المكتوب في فترة لاحقة ترجمت إليها بعض المخطوطات , وسجلت بها نقوش كثيرة على جدران كاتدرائية فرص وغيرها . ولقد أصبحت اللغة القبطية اللغة الرسمية , ولقد استخدمت استخداماً صحيحاً دون أخطاء لغوية أو إملائية . وكان تعليمها في الأديرة , كما تشير النقوش القبطية المدرسية في جدران كاتدرائية فرص .

رغم شيوع اللغة اليونانية والقبطية فأن اللغة النوبية القديمة كانت لغة الحديث بين عامة الناس , ويرجع أقدم نموذج منها إلى عام 795م في وادي السبوع , ويحوى على صلوات لأحد قساوسة فرص ويدعى بطرس . وتؤكد إشارة أبو المكارم إلى أن الملك سلمون قد خط كتاباً بالقلم النوبي , وتوسع استخدام هذه اللغة كشفت عنه الحفريات الحديثة في قصر أبريم , وفيما يتعلق باستخدام هذه اللغة في الطقوس الدينية بـ علوه فان من الملاحظ ندرة الشواهد الأثرية الدالة على ذلك . غير أنَّ ابن سليم ذكر أن أهل علوه ترجموا الطقوس الدينية إلى اللغة النوبية .

لم يحل غياب الشواهد في المصادر الأدبية المعاصرة وقتذاك عن تسليط الضوء على اللغات المحلية المستعملة في إقليم وادي النيل الأوسط خلال الفترة ما بعد مروى . دون تأكد العلماء على وجود النوبية القديمة في شكل أو آخر في ذلك الحين . كانت اللغة النوبية هي اللغة الأم للهجات النوبية

المعاصـرة التـي تنتشـر بـين الدبـة في السـودان إلـى الصعيـد الأعلـى لمصـر شـمالاً وانحـدرت منهـا أيضـاً لهجـات في دارفـور وكـر دفـان .

بـدأت الصـورة واضحـة في العصـور الوسـطى عـن الوجـود الكبيـر للغـة النوبيـة في رقعـة شاسـعة مـن البـلاد رغـم انقسـامها لفـروع عديـدة

1. النوبية النيلية
2. النوبية الجنوب كردفانية.
3. النوبية لغة الميدوب .
4. النوبية لغة برقد.
5. النوبية لغة جبل الحرازة المندثرة .

وتنقسم النوبية النيلية إلى أربعة أقسام هـي :

الدنقلاويـة , والكنزيـة , المسـيحية , والفوجـا أمـا لغـة جنـوب كـرد فـان فتحـوي لهجـة مجموعـة الأمانـق ذات الصلـة باللهجـة الدنقلاويـة , ولهجـة مجموعـة النيمانـق التـي تشـبه المسـيحية .

ويمكـن أن نعـرف مـن انتشـار النصـوص التاريخيـة المكتوبـة بالنوبيـة القديمـة في نطـاق مملكـة المقـرة لكنهـا شـكلت الحاضنـة لتلـك اللغـة , والأمـر المؤكـد أن ذلـك الموقـع لـم يظهـر فجـأة في القـرن الثامـن الميـلادي الـذي يرجـع إليـه أقـدم نـص معـروف عـن اللغـة النوبيـة القديمـة , وكتابتهـا بـ أحـرف إغريقيـة مـع قليـل مـن رمـوز المرويـة ربمـا كانـت عمليـة نجحـت بعـد تجريـب اسـتغرق بعـض الوقـت إلـى أن بلـغ غايتـه.

ومازال هنالك خلاف بين العلماء والباحثين حول الموطن الأول للغة النوبية، هل قدمت من المناطق النيلية ومن ثم إلى إقليم كردفان ودارفور أم العكس ويعد هارولد ماكمايكل من أبرز القائلين بـ انتقالها من المناطق النيلية إلى إقليم كردفان ودارفور , حيث احتوت لغة كردفان ودارفور على مصطلحات مصرية قديمة ومسيحية . أي أن اللغة النوبية كانت موجودة منذ فترة قديمة في المناطق النيلية ربما يرجع تاريخها إلى حضارة الخرطوم المبكرة وانتقلت بعد ذلك إلى جبال النوبة بعد الضغط الذي حصل في المنطقة بسبب هجرة العناصر العربية المسلمة لوادي النيل الأوسط.

وذكر أركل أن مجموعة من الناطقين بالنوبية فروا إلى غرب السودان جراء الهزيمة التي حلت بهم من قبل الاكسوميين في وسط القرن الرابع الميلادي

وهنالك رأي آخر لهجرة اللغة النوبية من غرب السودان إلى وادي النيل الأوسط نسبة لاتساع الأراضي الزراعية نتيجة لاستخدام السواقي , الشيء الذي جعل منها بؤرة جاذبة للمتحدثين بالنوبية لذلك صاروا يشكلون أكثر سكانها بعد القرن الثالث الميلادي .

وبشكل عام يمكن القول أن اللغة النوبية مرتبطة ارتباط قوي وحميم بين نوبية النيل ونوبية كردفان ودارفور , وتبدو مظاهر الاختلاف بينهما تعود إلى التلاقح الذي تم بين كل منهما والعناصر الثقافية التي توفرت في الوسط الذي عاشت فيه فاللغة من أميز خصائص البشر , لذا لا مناص لها في التفاعل مع العناصر الثقافية المحيطة بها .

شهدت العقود الأخيرة من الفترة المسيحية اضطرابا شديداً في العلاقة بين مصر والمقرة خاصة بعد أن آل الحكم في مصر إلى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس 1260م وحينها كان الخطر الصليبي ماثلاً على مصر , وتأزم الموقف أكثر عندما قاد ملك المقرة داؤد في العام(1272م) حملة على ميناء عيذاب الاستراتيجي لمصر على ساحل البحر الأحمر . ألحقت الحملة ضرراً بليغاً بالمدينة , ولم ينته الأمر عند ذلك فلقد شن النوبة هجوماً كاسحاً على أسوان عام (1275م) والحق بها أيضاً خسائر فادحة , لذلك تعامل المماليك مع هذا الهجوم من منظور صليبي وإمكانية التحالف بين النوبة والصليبيين .



الأسقف بطرس في حماية القديس بطرس

7
نهاية المسيحية في بلاد النوبة

واصل النقاش بعد ذلك في كيفية نهاية الفترة المسيحية كانت الآراء , على النحو الآتي : كما شهدت المقرة نزاعاً طويلاً بين أمرائها على العرش , الأمر الذي أدى إلى لجوء بعضهم لسلاطين المماليك طالبين منهم الدعم العسكري ووافق المماليك بقية تبعية ملكهم لمصر حال ظفرهم به , وبدأت الحملات المملوكية على المقرة في العام 1275م بأمر من السلطان بيبرس وتوالت في عهد السلطان قلاوون إلى أن نجحت أخيرا في تنصيب عبد الله برشمبو أول حاكم مسلم على المقرة 1317م ولقد ألحقت هذه الهجمات دماراً هائلاً بالمملكة , لم تقدر بعده على النهوض , فانفتح باب التغيير الشامل في بلاد النوبة اثر تدفق القبائل العربية البدوية عليها وتحول النوبة التدريجي إلى الإسلام

وفي نهاية تدهور دولة المقرة ظهرت مملك دوتاو ولم تجد هذه المملكة العناية المطلوبة من الباحثين , وقد حاول آدمز تتبع المصادر التي كتبت عنها المتمثلة في الوثائق والرسوم التي تم العثور عليها في منطقة النوبة السفلى . كما تناولها الأب فانتيني وأقدم تلك المصادر عبارة عن مجموعة من الوثائق تم العثور عليها عام(1974م) في قصر أبريم تضمنت أسماء اثنين أو ثلاثة من ملوك دوتاو هم: موسى جورج وجورج وبازل إلى جانب أسماء قساوسة وشخصيات أخرى , ويرجع تاريخ هذه الوثائق إلى الفترة مابين عامي (1144- 1199م) الموافق (539- 596هـ)

ويوضح هذا أن مملكة دوتاو كانت موجودة قبل هذا التاريخ , وقد ذكر أبن المقفع وأبو صالح أن مملكة المقرة تنقسم إلى ثلاثة عشر قسماً يطلق على كل قسم منها أسم مملكة ويحكمها ملك ويطلق على الملك في دنقلا أسم الملك العظيم أو الملك الكبير , ولكن لم تذكر المصادر أسماء تلك الممالك , فقد أطلق المقريزي مثلاً على الجزء الشمالي لمملكة المقرة كان يعرف عند النوبة (بصاحب الجبل) ولعل المؤلفين العرب كانوا يستخدمون لفظي (ملك) و (صاحب) كمترادفات وكما يبدو من تناول المصادر العربية فإن سلطة صاحب الجبل تمتد من منطقة الشلال الثاني حتى حدود المملكة عند الشلال الأول شمالاً , ويعتبر حكامها من اجل الحكام في مملكة مقرة وميزه أبو صالح بلبس (العصابة والقرنين والسوار الذهبي).

ولكن تضاربت آراء المؤرخين حول مقر صاحب الجبل، فجعله أبو صالح مرة في مدينة بجراش (فرس) التي كانت عاصمة لمملكة مريس (نوباتيا) وفي مرة أخرى جعل أبو صالح مقر صاحب الجبل مدينة أبريم وفي مرة ثالثة جعله مدينة بوسقا , وقد ذكر ابن سليم أسماء المدن الثلاثة الكبرى في المنطقة وهي بجراش ويكتبها ابن سليم نجر اشو أبريم وأدوا . ويفهم مما ورد عند النويري وأبن الفرات والمقريزي أن مقر صاحب الجبل مدينة ألدو.

وقد كتبت ألدو في المصادر العربية بأشكال مختلفة فهي عند ابن أبي الفضائل ألدو أو دو وعند المقريزي ألدو وأدوي وضبطها النويري ألدو أو جبل عدا, فـ ألدو أو دو أو داو هي التي وردت في المصادر العربية بـ اسم دو وعرف ملوكها بملوك دوتاو وتقع دو بين مدينتي فرس وإبزيم , وأثناء الصراع بين العمري وملك المقرة , استمال ملك المقرة أعداء العمري من عرب الشام وإعطاؤهم أقطاعات في (ديدان, وأدوا)كما ذكر المقريزي .

فنحـن أمـام أراء متعـددة حـول مقـر صاحـب الجبـل كمـا وردت ﰲ المصـادر العربيـة ولمـا كان صاحـب الجبـل يحكم كل أراضـي مملكـة مقـرة شمـال الشـلال الثانـي فقد استبعدنا وجود ملك آخر ﰲ هـذه المنطقـة , فهل نفتـرض أن مقـر صاحـب الجبـل كان يتجـول مـن مدينـة إلـى أخـرى ﰲ بعض الأحيـان ؟ لـورود أربعـة مقـرات هـي: بوسـقا , أبـريم , بجـراش , ودو .هـذا الافتـراض يتعـارض مـع المصـادر المقريـة التـي أوضحـت أن دو كانـت عاصمـة للملكـة منـذ العـام(1144م الموافـق 539هـ) وسـمي الملوك كلهـم بملـوك دو

ولقـد لخـص آدمـز دور القلعـة ﰲ تاريـخ المنطقـة منـذ القـرن الثانـي عشـر الميـلادي وأتضـح أن المملكـة اشتهـرت ﰲ المصـادر الآثاريـة باسـم دوتـاو , وبينـت المصـادر الآثاريـة أنهـا ظلـت عاصمـة لمملكـة مسيحية عشر علـى أسمـاء ثمانيـة مـن ملوكهـا وبعـض أسـماء مـن أسـاقفتها حتـى نهايـة القـرن الخامـس عشـر الميـلادي أي قبـل عشـرين سنـة فقـط مـن تاريـخ قيـام سلطنـة سنـار الإسـلامية.

أمـا علـوه فتعرضـت بعـد القـرن الحـادي عشـر للضعـف والتدهـور، ربمـا كان السـبب الرئيسـي ﰲ ضعفهـا ومـن ثـم زوالهـا يرجـع إلـى جانـب صـراع نخبتهـا علـى عرشـها، هجـرة القبائـل العربيـة البدويـة إلـى أراضيهـا وتغلغلهـا ﰲ ربوعهـا، ممـا أدى إلـى سحـب البسـاط مـن تلـك النخبـة , فوقعـت البـلاد لقمـة سـائغة ﰲ أيـدي الفـونج (1504م) الذيـن زحفـوا إليهـا مـن موطنهـم بأعالـي النيـل الأزرق بعـد أن تحالـف معهـم العبـدلاب .

دخلـت بـلاد النوبـة بعـد ذلـك ﰲ مـد كثيـف مـن الأسـلمة والاسـتعراب، قادتـه القبائـل العربيـة التـي صاهـرت النوبـة، مسـتقلة نظامهـم ﰲ توريـث العـرش القائـم علـى الانتسـاب لـلام , فـآل الأمـر إلـى الأبنـاء الذيـن كان ولاؤهـم

للإسلام والثقافة العربية , وتعزز وجودها بالتجار العرب وعلماء الدين الإسلامي الذين قدموا من مصر والحجاز وبلدان المغرب

طرحت في نهاية النقاش مجموعة أسئلة تتلخص في قول الشيخ محمد النور ود ضيف الله 1810م التي تقول في معرض سرد كرامات الشيخ إدريس بن محمد الأرباب: (وأنَّ دار الغرب سوف يملكها رعايا فور من الحرازة أم قد إلى الكنيسة الرقطاء , ما هي الكنيسة الرقطاء , وأين كانت تقع بالتحديد علماً بأن دار الغرب في هذا السياق تعني كرد فان كما شرحها محقق الكتاب بروفيسور يوسف فضل .

8

عزوف الباحثين عن دراسة تاريخ الفترة المسيحية

أخيراً تناول الباحثون عزوف الدراسات الحديثة عن تناول موضوعات الفترات المسيحية في بلاد السودان وعزاها بعضهم لقلة المصادر والمراجع لتلك الفترة إضافة للجهود القليلة للبعثات الكشفية الآثارية وتمركزها في مناطق معينة من البلاد. مع العلم أن الفترة المسيحية غنية بالمقتنيات الأثرية بالمخازن ومتحف السودان القومي، حتى أن هنالك مبادرات لعمل متحف خاص بالفترة المسيحية في منطقة دنقلا . كذلك توجد الكثير من المصادر والمراجع المتنوعة عن تاريخ تلك الفترة وذكر بعض الباحثين عن إثراء المكتبة العلمية بالكثير من المؤلفات عن تلك الفترة. لذلك يمكن نفي مبرر قلة هذه الدراسات لعدم وجود مصادر ومراجع لتلك الفترة.

ومن الأسباب الواضحة في قلة الدراسات لفترة المسيحية عدم الاهتمام بموضوعاتها من قبل الباحثين في الجامعات والمعاهد والمراكز البحثية.

إضافة إلى أنها مرحلة انتقالية بين الفترات القديمة وبدايات الفترات الحديثة. الشيء الذي جعل هذه الفترة يكتنفها الغموض في كثير من موضوعاتها، وهي الآن مكان حراك علمي وبحثي في غاية الأهمية لتكملة الدراسة في تاريخ السودان.

كذلك ربط كثير من الباحثين للمسيحية برجال الدولة وإنها دين ملوك واقتصروا دراستها بشكل مقتضب للغاية أي إشارتهم إلى هذه الفترة

إشارات بسيطة وغير عميقة لهذه الفترة , ولكي تحدث ثورة علمية بحثية في تلك الفترة لابد من متابعته الأعمال الأثرية في المناطق الأثرية للفترة المسيحية منذ بداياتها وحتى تاريخ اليوم , لأن لها الدور البارز في الكشف عن الإرث المادي لهذه الفترة المهمة , فلابد من الاطلاع على الكشوف التي أجريت في التلال الترابية في فركة وكوشة وواوا وجمي وفي جزيرة صاي وفرس ومينارتي وتنقاسي والمناطق التي تجرى فيها البحوث والاكتشافات الحديثة خاصة المناطق الدينية والاستيطانية والجبانات , حيث تثري هذه الدراسات معرفتنا بالإرث المادي والثقافي والعقائدي للفترة المسيحية , ولقد ساهمت التقنيات الحديثة في البحوث العلمية في المواقع الأثرية في دنقلا العجوز وأم بكول ومنطقة المحس ومنطقة الشلال الرابع ومنطقة النيل الأبيض والنيل الأزرق وكر دفان .

ختاماً لابد من الاهتمام بدراسة الوثائق والنقوش الأثرية وهي نتائج الأعمال البحثية قي بلاد النوبة والسودان الأوسط , خاصة الرسائل والمكاتبات التي عثر عليها بمواقع قصر أبريم , ووثائق الجبلين بصعيد مصر التي كتبت بالقبطية والإغريقية , وقصص وحياة الرهبان في الأديرة القبطية وعلاقتهم بالنوبيين والبلميين , وأيضاً الكتابات والنقوش التي على جدران الكنائس والضرائح وشواهد القبور والبرديات والقطع الأثرية الصغيرة .

الاهتمام بالدراسات والاكتشافات الحديثة ومتابعتها أول بأول وتشجيع مواصلة العمل في المناطق الأثرية والعناية بالبعثات الكشفية في المواقع المسيحية خاصة الأعمال المحلية ممثلة في أعمال الهيئة العامة للآثار والمتاحف السودانية وأعمال قسم الآثار بجامعة الخرطوم , وجهود قسم الآثار بجامعة شندي ودنقلا والنيل الأزرق , وكذلك مشروع النيل الأبيض

الأثري الذي يقوم به قسم الآثار بجامعة النيلين بالاشتراك والتعاون مع الهيئة العامة للآثار والمتاحف بولاية النيل الأبيض وكلية الآداب جامعة بخت الرضا .

التشجيع لمثل هذه الأعمال ونشر نتائجها بين الباحثين والطلاب يسهم كثيراً في النهوض بالدراسة والبحث في الفترة المسيحية، التي تفتقر لمثل هذه الدراسات الحديثة حتى نميط اللثام عن دراسة تاريخ المسحية في السودان .



الأسقف ماريانوس مع العذراء حاملة الطفل الرضيع يسوع

الخاتمة

تمت مناقشة هذه الدراسة من قبل مجموعة من الخبراء والباحثين في مجموعة رؤى جديدة في تاريخ السودان , موسومة بالفترات المسيحية والأثر الاجتماعي على أهل النوبة في تلك المناطق ونلاحظ الجانب الحديث في تلك الفترة ودراستها على الرغم من قلة المصادر التاريخية التي تتناول الجوانب الاجتماعية , فكثيراً من الباحثين يميلون إلى الجوانب السياسية وبناء الدولة وازدهارها ومن ثم تدهورها , تاركين حلقة المجتمع وكيفية تأثيره بالفترة التاريخية وتأثيره الفترة المعنية بإنجازاته , وهذا نلاحظه جلياً في الفترة المسيحية , فنجد أن النوبيين أضافوا كثيراً لخبراتهم المتراكمة خاصة في مجال الرسوم واستخدام الألوان والتصاوير المستوحاة من الكتاب المقدس , واحتكاكهم بالعلم الخارجي ومعرفة لغات جديدة حتى مستوى الشعائر الدينية وأدبها , وخير مثال لذلك اللغة اليونانية والقبطية .

كما أضاف أهل النوبة الكثير لهذه الثقافة الجديدة فنلاحظ الكثير من العادات والتقاليد النوبية ظلت ثابتة في المجتمع النوبي كما استفادوا من المعابد التي كانت تابعة للدولة المروية في الفترة السابقة للمسيحية وممارسة بعض الشعائر الدينية باللغة النوبية، خاصة في الفترات الأخيرة لهذه المرحلة.

هذه الفترة تفتقر كثيراً لتسليط الضوء عليها خاصة الجوانب البحثية والكشفية على قلتها فنلاحظ المعلومات القديمة المعتمدة على المصادر العربية القديمة هي الأساس لأي دراسة في تلك الفترة واستبعاد التقارير الأثرية الحديثة التي أسهمت بشكل كبير في تبيان معلومات مهمة وجديدة

لتلك الفترة خاصة الجوانب الاجتماعية والثقافية ومدي تأثيرها على المجتمع النوبي.

لذلك لابد من شحذ أذهان الباحثين والدارسين المحليين والعالميين لدراسة تاريخ تلك الفترة، وبالأخص الدراسات التنقيبية والأثرية والمخطوطات والنقوش والرسومات في الأديرة والكنائس النوبية.



دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribuation

الناشر

دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السـودان

جوال: 00249122094856 - 121566207

البريد لإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

أضاء هذا الكتاب كثيراً من جوانب تاريخ السودان في العصر الوسيط، غير أنه لا يزال هنالك قصوراً واضحاً في دراسة تاريخ الممالك المسيحية كما أشار محرر الكتاب. فهنالك بعض الجوانب التي تتطلب المزيد من العناية والتركيز مثل موضوعات انتشار المسيحية المبكر السابق لاعتناق الممالك لها رسميا في القرن السادس الميلادي، وأثر الرهبان وبطاركة الكنيسة القبطية على ذلك، وانتشار المسيحية في مناطق شرق وغرب السودان وأعالي النيل الأزرق. وهنالك جوانب أخرى مهمة في هذه الفترة في تاريخ السودان الوسيط بين القرنين (5-15م) شهدت أحداثاً تاريخية كبرى تأسس عليها تاريخ السودان. لعل أهمها ثلاثة أحداث، أولهما نتج عنه قيام الممالك المسيحية، وحدثين نتج عنهما انهيار وسقوط الممالك المسيحية.



دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribuation